

في هذا العدد

الإبداع شعر

- ١٤٣ حكايات من مونتريال
سليمان العيسى
- ١٤٥ الريح والزيتون
محمود حامد

قصة

- ١٤٨ الدار
نصر الدين البحرة
- ١٥١ لم أكن أفهم
غسان كامل ونوس

آفاق المعرفة

- ١٥٥ من الملامح الفكرية في أدب توفيق الحكيم
محمود محمد أسد
- ١٦٧ الرومانسية في بوتقة الحداثة
د. عبد الهادي صالح
- ١٨٠ اللغة.. الكتاب
عباس حيروقة
- ١٨٩ بانوراما /٢٠١٢/ في عالم متعدد الأقطاب
د. قحطان السيوفي
- ١٩٤ هانز كريستيان أندرسون: الأديب الفنان
ترجمة: رافع شاهين
- ١٩٨ أينشتاين: من أكاذيب القرن العشرين
د. ناصر محي الدين ملوحي
- ٢٠٤ دفاعاً عن تاريخ الفكر
وفيق كريشات
- ٢١١ فلسفة التصوّف عند ابن خلدون
عيد الدرويش

حوار العدد

- ٢١٧ د. مروان مسلماني: أبرز مصوري الآثار
عادل أبو شنب

متابعات

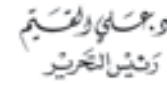
- ٢٢١ صفحات من النشاط الثقافي
إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

- ٢٣١ في ذكرى الدكتور فاخر عاقل
د. صالحة سنقر

آخر الكلام

- ٢٣٧ المعرفة والتطور
رئيس التحرير



- ١٣ لغة أوائل الشعر العربي
د. محمد ياسر شرف
- ٢٥ نساء ورسائل في حياة طه حسين
د. عمر الدقاق
- ٤٣ ابن الرومي شاعر الصورة المجسّمة
جميل حسن
- ٥٠ أضواء الشعر السوداء
عبد القادر حمّود
- ٥٦ نمط من الشعر في زمن الكبار
د. محمد رضوان الداية
- ٦٧ خصوصيات الهندسة المعمارية لمسرح بصرى الاثري
د. خليل المقداد
- ٧٧ العمارة في تدمير في عصر معبد بل
ترجمة: موسى ديب الخوري
- ٩٣ هل تتغير قوانين الطبيعة مع مرور الزمن
ترجمة: حسام الدين خضور
- ١٠٢ ريجيس دوبريه: أحد أكثر الفلاسفة إثارة للجدل
إبراهيم سلوم
- ١١٣ مستقبل المجالات الثقافية في العصر الإلكتروني
عبد الباقي يوسف
- ١٢٥ اللغة العربية وتكنولوجيا المعلومات
هبة الله الغلاييني
- ١٣٣ عمر بن أبي ربيعة واللورد بايرون
إبراهيم محمود الصغير

لغة أوائل الشعر العربي

✽

د. محمد ياسر شرف

والعبرية والصائبية والحبشية وغيرها، والمقاربات التي أجراها بين ما اشتملت عليه من ألفاظ.^(١) أما «إغناطيوس غويدي» الذي اتقن اللغة العربية (الفصحى وأشهر مصادرها البائدة التي عدّ منها: (الحميرية والسبئية والمعينية) إضافة إلى لغات سامية أخرى كالحبشية والسريانية والعبرية، وعمل في اللهجات المقارنة، ونشر كتابي «الاستدراك على سبويه» للزبيدي و«الأفعال وتصريفها» لابن القوطية؛ فقد ذهب إلى أن اللغة العربية الفصحى هي مزيج من لهجات قد تكلم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها، ولم تكن لهجة معينة لقبيلة معينة.^(٢)

ورأى «كارلو نلينو» العارف بتاريخ الإسلام والمتتبع تاريخ اليمن القديم ومخطوطاته ولهجاته أن العربية الفصحى تولدت من إحدى اللهجات النجدية، وتهدّبت في مملكة كندة وفي أيامها، فأصبحت اللغة الأدبية السائدة. وعزا سبب ذلك إلى أن ملوك هذه المملكة أغدقوا على الشعراء

ما تزال جغرافية اللغة العربية التي جاءت بها منقولات الشعر العربي الذي نسب إلى الفترة القريبة من ظهور الإسلام، والتي كانت في مجملها صوتية خلا قليلاً جداً من كتابات قصيرة، لغزاً راهناً لم يستطع عديد من الباحثين المختصين أن يهتدوا إلى تفكيكه، سواء في دراسات المستشرقين الذين كانوا أول من تناول آثار مصنّفات المسلمين المبكرين بالدراسة، أو المختصين العرب الذين أقبلوا على هذا النوع من الدراسات المقارنة؛ وما يزال المعنيون بانتظار العثور على لُقى وبقايا من وثائق تلك الفترات الزمنية المهمة في ترتيب مراحل تواريخ الأفكار.

فقد ذهب «تيودور نولدكيه» إلى دعم الرأي القائل بأن الفروق بين اللهجات في الحجاز ونجد ومناطق البادية المتاخمة للفرات لم تكن كبيرة، وأنّ اللهجة الفصيحة لا بدّ أن تكون قد شملت تلك اللهجات جميعها؛ وذلك انطلاقاً من معرفة نولدكيه عدداً من اللغات، منها: العربية والآرامية

✽ أديب وناقد سوري.

في البلاد العربية سنوات طويلة يدرس لغات الأمثال والأقوال الشائعة فيها، وحقق «ديوان أبي محجن الثقفي» و«ديوان زهير بن أبي سلمى» وكتاب «نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقِداح» للزبيدي، ونشر أبحاثاً عن اللهجات العامية والنقد الأدبي.

وذهب إلى أن الشعراء هم الذين وضعوا قواعد هذه اللهجة، وعلى قواعدهم سار المتأخرون، ومن نصوص أشعارهم استخرجت القواعد، ومن قصائدهم تلك استنبط العلماء أصول النحو. إلا أن «كارل بروكلمان» ذهب إلى أن لغة الشعر قبل الإسلام لا يمكن أن يكون الرواة والأدباء قد اخترعوها، على أساس كثرة من اللغة الدارجة، حتى إن هذه اللغة لم تكن لغة جارية في الاستعمال العام، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات، وإن غدت لها لهجات عربية كثيرة ومتنوعة.^(٥)

ويُعد «ريجيس بلاشير» أحد الباحثين الذين أيدوا الرأي القائل بوجود لغة عالية عند عرب ما قبل الإسلام، وذهب إلى تقرير: «إن وجود لهجات ولغة عليا ليس فيه شيء مخالف للعادة، كما إن نمو لهجة شعرية ليس فيه أيضاً شيء خارق».^(٦)

ويتلخص تصوّر بلاشير للمسألة في أن اللغة المذكورة لهجة شعرية تنطبق على اللهجات المحلية، بل هي امتداد لها، وهي في الجملة موضوعة للأغراض النبيلة والتعبير الفني عن بعض أنواع التفكير، لها خصائص اللهجات في

مكافآت مجزية وشجّعوهم فكان لهذا وقع في نفوسهم، وساعد في توسيع رقعة هذه المملكة التي ضمت أكثر قبائل معد، وكان لها فضل توحيد تلك القبائل وجمع شتاتها. فشاعت هذه اللهجة -حسب رأيه الاستنتاجي- في منتصف القرن السادس من التاريخ الميلادي، وانتشرت خارج نجد وعمّت معظم أنحاء الجزيرة، وخاصة القسم الجنوبي من الحجاز الذي فيه يثرب ومكة والطائف، مع بقاء اللهجات العامية في منطق الناس المعتاد، كما كان للعواصم المشهورة والملوك الحيرة وغسان شأن لا ينكر في هذا الانتشار السريع المعجب.^(٧)

والباحث اللغوي «جوهان فولرز» الذي نشر بالعربية «ديوان المتلمس» جرير بن عبد العزى (خال طرفة بن العبد، أحد أصحاب القصائد المعلقة) مع ترجمة بالألمانية، كتب عن «العربية العامية عند قدماء العرب» بصورة مقارنة و«اللهجة العامية في مصر». وحقّق معلقة «الحارث بن حلزة» اليشكري بشرح الزوزني، بحسب مخطوطات باريس، مع قصيدتين لأبي العلاء المعري بحسب مخطوط بطرسبورغ، مع ترجمة إلى اللاتينية وشرح. وقد وضع تصنيفاً بعنوان «مبادئ النحو العربي» على هيئة جداول، وذهب إلى أن العربية الفصحى هي لهجة أعراب منطقتي نجد واليمامة، غير أن الشعراء أدخلوا عليها تغييرات متعددة على نحو ما وصل في نصوص الشعر القريبة من الفترة الإسلامية.^(٨) والباحث السويدي «كارلو لاندنبرغ» أمضى

تبتعد بعض الابتعاد عن تلك اللهجة، بسبب ما فعله علماء النحو والصرف الذين اعتنوا بأغراض اللغة العربية وشؤونها، وما أدخلوه من تشذيب وتهذيب رسخهما المشتغلون باللغة.

فتور نقل الشعر

مهما يكن من أمر أصل لغة نصوص الشعر القديم وصلتها بأسس الفصحى أو الفصيحات من لغات العرب في بيئاتهم الجغرافية المتعددة، فلا بد من ملاحظة ما سمي «فترة الانقطاع» التي حدثت في إقبال العرب أنفسهم على تناقل النصوص الشعرية وحفظها في بداية الدعوة الإسلامية، لافتين إلى تأثير ذلك في الآثار التي تعرضت للنسيان -من جهة- إضافة إلى الحالة التي سادت في غياب المعين الذي يفترض أن تستمد منه اللغة الفصحى فاعليتها -من جهة ثانية- بحسب التصور الآخر لاستمرارها.

فقد روى ابن سلام في حديثه عن المنقول الصوتي الذي وصله في سياق ما لا يمكن تأكيده لأسباب متعددة^(٨) فقال: «قال ابن عوف عن ابن سيرين: قال عمر بن الخطاب: كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام، فتشاغل عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد، وغزوا فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، وأطمأن العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يثلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، فالفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم أكثره»^(٩).

وسط الجزيرة وشرقيها. ولم تكن هذه اللهجة العالية مقصورة الاستعمال على أهل الجزيرة وحسب، بل كانت لغة الشعر أيضاً عند عرب العراق وعرب بلاد الشام. ولهذا كان الشعر مفهوماً عند «الجاهليين» جميعاً أينما كانوا، سواء في جزيرة العرب أو العراق وبلاد الشام.

وكانت الفوارق بين هذه اللهجة وبقية اللهجات تختلف تبعاً للمجموعات اللغوية؛ فالفارق ضئيل بينها وبين لهجات أواسط جزيرة العرب وشرقيها، ولها خصائص الأقسام الشرقية والوسطى من جزيرة العرب. وكان الشاعر ينزع دوماً إلى الابتعاد عن مؤثرات لهجته القبلية، والارتفاع عنها إلى لغة الشعر المتعارفة بين «الجاهليين» آنذاك، لكونها اللغة الرفيعة في نظر أهل الصفوة المجتمعية، وكانت تدل على تهذيب الشاعر وسمو مداركه وسلوكه وثقافته^(٧).

ويرى بلاشير أن علماء اللغة والنحو حين أخذوا بضبط قواعد اللغة غربلوا اللهجات، وتوغلوا بين الأعراب مدفوعين بعقلية تنهيج اللغة وتنقيتها، مما أدى بهم إلى توحيد لغتي النصوص القرآنية والنصوص الشعرية التي سبقتها، في الوقت الذي نظموا واستخرجوا قواعد العربية الفصحى، ونتج عن ذلك إضاعة أشياء قليلة من اللهجة الشعرية قبل الإسلامية في سبيل التوفيق بينها وبين لغة النصوص القرآنية. وما العربية الفصحى الحالية إلا لهجة ولدت من ذلك، والنصوص المضبوطة في شكلها الحاضر لا تمثل اللغة الشعرية في شكلها القديم، وإنما

وسواء صحّت هذه الإفادة عن عمر بن الخطاب أم لم تصحّ، فإنها تشير إلى إقرار واقع مفاده: انقطاع العرب عن التاريخ الصوتي المتداول للأحداث المهمة بوساطة النصوص الشعرية، التي لم تكن مكتوبة عند ظهور الإسلام، إضافة لانصرافهم عن إنتاج تلك النصوص وعدم تداولها لمدة من الزمن دامت طوال سنين انتشار الإسلام، ثم العودة إلى المرويّات بعد استقراره؛ مما يفسح المجال واسعاً للقول بوجود مقادير غير قليلة من الترميمات التي تمت في الذاكرة على نحو عفوي، أو بغرض سدّ الثغرات على نحو قصدي مبعثه اندثار المنقول أو عدم وجود وثيقة مكتوبة ورثها الأبناء عن الأجداد والآباء.

فابن سلام نفسه ذكر في آخر الإفادة السابقة أنّ العرب حفظوا «أقلّ ذلك»، وذهب عنهم أكثره»، ثم ذكر على نحو صريح واضح في موضع لاحق غير بعيد: أنّ «أولّ من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمّاد الراوية، وكان غير موثوق به. كان ينحل شعر الرجل غيره، ويزيد في الأشعار»^(١).

وقد توفّي «حمّاد بن سابور» أو «ابن ميسرة» أو «ابن أبي ليلى» الديلمي. غير العربي. الملقّب باسم «الراوية» سنة (١٥٥هـ) أي بعد زوال حقبة الخلافة الأموية كلها بحوالي ربع قرن من السنين، وإليه نسب أولّ جمع للقصائد السبع الطوال، المعروفة بأسماء متباينة منها «المعلقات».

ويفترّض -بحسب هذه الحكاية- أنّ نصوص الشعر المنقول عن فترة ما قبل الإسلام وأوّل عصر إسلامي ثم العصر الأموي وعشرات سنين

من العصر العباسي كانت تروى صوتياً خلال تلك السنوات المديدة، التي تعاقبت فيها الأجيال المتعدّدة، عبر بلاد مترامية الأطراف تنتشر فيها أميّة القراءة والكتابة بين الغالبية العظمى من العرب والوافدين المسلمين، ولا تتوافر فيها وسائط التدوين، فضلاً عن عدم تأسيس قواعد اللغة العربية بصورة موحّدة. إملاءً ونحواً وصرفاً ودلالة. وعدم وضعها في الكتب التي لم تكن قد ظهرت بعد، مع وجود الحروب والنزاعات والعداوات الكثيرة التي فرّقت المسلمين شيعاً وأحزاباً. ولم يذكر أي خبر لدى مؤرخي الشعر الأوائل أنّ حمّاداً كان يكتب ما يحفظ، بغرض مراجعته أو العودة إليه بعد مرور فترات من الزمن أو للتأكد من بعض أوضاعه أو في مناسبات معينة، بل إنّ الأخبار المتصلة بنقله تواطأت على امتداح ذاكرته ونيله الاعطيات والأموال مكافأة لحفظه الفريد.

نقّلة الشعر ليسوا عرباً

يضاف إلى ما تقدّم كـله وجود أعداد كثيرة جداً -إذا قيسَت إلى أعداد العرب- من السكان ذوي الأصول المتعدّدة الأعراق غير العربية، الذين كان من أبرز خصائصهم التبادلية في التفاهم الصوتي أنّ اللغة العربية ليست أمّاً للسانهم المنطوق الذي يتحدثون به ويتفاهمون؛ بما يعني أنّ ثقافة أكثرهم قد اقتصرَت على حفظ بعض نصوص من آيات قرآنية يردّها في الصلاة وبعض الأدعية والمأثورات والتعاليم والأحاديث والأخبار، التي تكفي حكاية معانيها

وفهم مضامينها مهما كانت اللغة التي تنقل بها إلى الأشخاص المعنيين.

وتشير أخبار مكررة أخرى - وصلتنا في ما حملته كتب الأوائل - إلى وجود أشخاص آخرين قلائل ذوي أسماء معدودة وقدرات محدودة عرفوا بجمع نصوص الشعر العربي المختلفة وصناعتها في العصر العباسي، وليس قبله، أي بعد مضي قرن ونصف القرن من بداية التاريخ الهجري، ومات أوائلهم قبل ظهور صناعة الورق في بغداد (حوالي سنة ١٧٢هـ)، أو حقبة قريبة من ذلك لا تكفي لجمع النصوص الشعرية المتناثرة جغرافياً والتي تعود تواريخ إنتاجها لحقبة ما قبل ظهور الإسلام في منطقة الحجاز.

فذكر أبو عثمان الجاحظ ومحمد بن النديم^(١١) أنه اشتهر بجمع الشعر ثلثة قليلة العدد معروفة الأسماء، منهم: أبو عمرو بن العلاء (ت: ١٥٤هـ) وخلف بن حيان (ت: نحو ١٨٠هـ) ومحرز الأحمر (المجهول الولادة والوفاة والسيرة الشخصية) وقيل إنه «كان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم» حسب ما يفيد ابن النديم^(١٢)، فارتبط - أيضاً وجود رواة الشعر بمعرفتهم صناعته، أي قدرتهم على إنتاج نصوص شعرية متأخرة زمنياً بصورة كلية أو جزئية، ونسبتها إلى فترة متقدمة عليها، سواء في ذلك مرحلة الإسلام المبكرة وما سبقه وما كان لاحقاً عليه.

وأشارت بعض الأخبار إلى وجود جماعة من المعنيين بالنصوص الشعرية في القرن الثالث

الهجري، فيهم: أبو عبيدة التيمي الولاء معمر ابن المشي، عبد الملك بن قريب الأصمعي، المفضل محمد الضبي الكوفي، إسحاق بن مرار الشيباني، ومحمد بن زياد الأعرابي، جناد بن واصل الكوفي، خلاد بن يزيد الباهلي، وغيرهم^(١٣).

والملاحظة المهمة التي يجب أن نشير إليها هنا - على الرغم من حرصنا على عدم التوسع في الموضوع - تتمثل في عدم انحصار تأثير مسألة صناعة النصوص الشعرية ونحلها في نسب أثر أدبي أو إبداعي أو تاريخي لأشخاص لم يقولوه وحسب، فالجانب الأكثر خطورة تمثل في أن ما شملته مضامين هذا النوع من النصوص الشعرية من أفكار وآراء ومعتقدات، عرفتها المجتمعات العربية المتنوعة في فترات متفاوتة الظروف والمعطيات خلال مراحل متفاوتة التأخر زمنياً من سيورتها الثقافية، قد نسب إلى أشخاص بأعيانهم أو مجتمعات عاشوا فيها قبل فترة من الزمن محددة، أي قبل تاريخ الإنتاج الفعلي.

وقد أدى ذلك -زيادة على تشويه الأحداث التاريخية وتسلسلها - إلى إسباغ صفات ثقافية أو معرفية متنوعة الموضوعات والمعطيات، غير مقصودة بذاتها أو دقيقة التحديد، إلى أشخاص من السابقين الذين لم يكونوا قد عرفوها حقاً. فتسبب ذلك في صعوبة فرز الأفكار التي سادت في الأخبار والمدونات العربية اللاحقة، وزادت صعوبة الوقوف على حقيقة أوضاع التطور الثقافي في مجتمعات العرب المتعددة، التي لا شك أنها أصابت من التأثر والتأثير حظوظاً متفاوتة

اللفظ قد اكتسب معناه الاصطلاحي بعد أن صار المتحدثون بالعربية يتجهون (أي: ينحون) إلى تطبيق آراء المعنيين ببحوث اللغة واجتهاداتهم في صياغة الكلام العربي، بغرض «الإعراب» الذي صار يعني توصيل فكرة ما باستخدام اللغة العربية.

وهذا ما سبّب -في رأينا- وجود التباس بين كلمتي الإعراب والنحو حتى اليوم في كتب اللغويين، فهم يتحدثون عن قواعد النحو الضابطة للنطق والكتابة، كما يتحدثون عن إعراب الكلام أي بيان موقع كل كلمة في الجملة وحركتها الفردية ودورها في تكوين المعنى العام. ولا نعدم في كتب النحويين وجود اختلافات جذرية في بعض الآراء المتصلة باستخدام الألفاظ المفردة وصياغة التعابير أو العبارات، من ما اتخذ صور «مدارس واتجاهات» في النحو وغيره من مطالب اللغة.

وقد عرض «أحمد أمين» لتفصيل الروايات والأخبار التي وصلتنا عن أول من وضع نحو اللغة العربية، والكيفيات التي بدأ في ظلها هذا العمل الكبير، فرأى فيها غير قليل من التجاوزات المنطقية والظنون غير المنهجية، وصرح قائلاً: «كل هذا حديث خرافة، فطبيعة زمن علي (بن أبي طالب) وأبي الأسود (الدؤلي) تأبى هذه التعاريف والتقسيمات الفلسفية. والعلم الذي ورد إلينا من هذا العصر في كل فرع، علم يتناسب مع الفطرة وليس فيه تعريف ولا تقسيم. إنما هو تفسير آية، أو جمع لأحاديث، ليس فيها تبويب ولا ترتيب..

ومتغايرة، بسبب عوامل جغرافية واقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية وعسكرية وكثيرة أخرى سواها.

قواعد النحو وتهذيب اللغة

يعدّ ما ذكره المؤرخون عن ابتداء وضع قواعد النحو العربي واحداً من المشكلات التي ماتزال تنتظر الحل في تاريخ اللغة، وخاصة الجانب المتصل بضبط الشعر المنسوب إلى الفترة التاريخية التي سبقت ظهور الإسلام وكانت قريبة بعده. إذ يبدو نتيجة الفحص الدقيق للمصادر والمراجع الإخبارية والبحثية المبكرة أنّ تلك العمليات قد أفرزت نتائج متفاوتة الحظ في النجاح، وماتزال بين أيدينا شواهد كثيرة على وجود اختلافات واضطرابات تصنيفية وتأويلية مؤثرة ذات مساس مباشر بمضمون اللغة وطبيعتها.

فما وصلنا من مؤلفات يتحدث عن أن حركة تنظيم اللغة لا تسبق القرن الثاني الهجري، مع كثير إشارات إلى النقل الشفوي قبل ذلك، وترافق احتكاك العرب بشعوب من أصحاب اللغات الأخرى، وانتماء أغلب المشتغلين باللغة إلى غير العرب وعدم معرفة كثيرين منهم العربية قبل ترك بلادهم والإقامة في بعض الحواضر العربية^(١٤).

ولا بدّ أن نلاحظ أنّ معنى «النحو» في الأصل هو الاتجاه أو التوجّه، ولم يكن يعني في اللغة. حتى بداية العصر الأموي على الأقل. وضع أيّ قواعد أو ضوابط للقراءة والكتابة. ويبدو أنّ

بقولها: ما أحسنُ السماء، بصيغة الاستفهام بدل صيغة التعجب: ما أحسنُ السماء^{١٥}.

وأتى «محمد مرتضى» الزبيدي (ت: ٣٧٩هـ) بزيادة من عنده لتأكيد أن البحث في المعاني يسبق وضع الحركات التي تدل على وظائف محددة، فزعم أن أبا الأسود قد وضع «باب المضاف». وزاد في مكان آخر أنه وضع «باب التعجب» ثم «غيرها من الأبواب»، ولم ينس أن يزعم زيادة حروف «الجزم» على حد زعمه وضع «حروف الرفع والنصب والجر». وزادت أعداد الأبواب المنسوب وضعها لأبي الأسود بعد وفاته، دون أخبار موثوقة، فذكرت أبواب: تقسيم الكلام والعطف والنعت والاستفهام^(١٦) وغيرها من أمور تستحق الأفراد، على نحو ما ذكره الزبيدي والقفطي.

ولم يصلنا أي بحث أو كتاب يصف الانتقال من «نقط الإعراب» إلى «نقط الإعجام» أي الانتقال من استخدام «النقطة» للدلالة على حركة الضم والفتح والجر، إلى استخدامها للتمييز بين أحرف متشابهة الكتابة كما في الراء والزاء، والباء والتاء، والشاء، وغيرها. إذ بقي هذا الانتقال غامضاً، ولم يتضح في سير المشاهير والأعلام التي احتفى مصنفوها بأقل من هذا الإنجاز بكثير^(١٧).

ولم يذكر النحاة الذين كانوا أحياء في العقد الثالث من القرن الثاني الهجري، وحتى بعد انتهاء الدولة الأموية وجود بحوث تطبيقية مرموقة في النحو، رغم أن العمل في لوازم نقط الإعجام قد قرب قواعد الكتابة العربية من اللغتين السريانية

ويشهد لهذا الروايات الكثيرة المتناقضة في سبب الوضع، ومن حسن الحظ أن هذا ليس محل اتفاق بين العلماء. فمنهم من قال إن واضع النحو عبد الرحمن بن هرمز في خلافة هشام، ومنهم من قال إنه نصر بن عاصم؛ والقائلون بهذا -من غير شك- ينكرون نسبته إلى علي وأبي الأسود^(١٥).

وأكد أستاذ النحو العربي «سعيد الأفغاني» هذا الرأي، وأضاف بلهجة استكبارية ملاحظة مهمة تقول: «لست أدري، هل أبقت الحروب والفتن علي وقتاً يفرغ فيه للتأليف في العلوم وتتيقحها واختراعها»^(١٦). ولا شك أن هذا وغيره يرد على تلك الظنون المتصلة بمسألة الفترة المبكرة في وضع قواعد النحو العربي، على غرار ما سنذكر أكثره شيوفاً.

فقد أخبر أبو الطيب «عبد الواحد بن علي» اللغوي (ت: ٣٥١هـ) بعد مرور حوالى مئتين وثمانين سنة من وفاة «ظالم بن عمرو» الكناني، المعروف بأبي الأسود الدؤلي أن المرحلة الأولى في وضع «قواعد النحو» كانت تتلخص في جعل «حروف للناس بين بها أبو الأسود مواضع الرفع والنصب والجر» للحفاظ على معاني النصوص القرآنية^(١٧).

وهذا كلام يعارضه ما حكاه «حسن بن عبد الله» السيرافي (ت: ٣٦٨هـ) من أن أبا الأسود «وضع باب الفاعل والمفعول، ولم يزد عليه» وأنه «وضع كتاباً» أي كتب شيئاً غير مسبوق في مجاله، لما سمع ابنه تتعجب من حسن السماء فتلحن^(١٨)

والكلدانية، اللتين كانتا منتشرتين في أنحاء البلاد السورية والعراقية وليس في مكة أو المدينة.

و«أحمد بن فارس» القزويني (ت: ٣٩٥هـ) الذي تعلم اللغة العربية بوسائط بدائية في همدان والري هاجم سابقه الذين قالوا بمراحل وضع القواعد اللغوية وأوزان العروض في الشعر، قائلاً: «إن هذين العلمين قد كانا قديماً، وأتت عليهما الأيام وقلّا بين أيدي الناس، ثم جدّهما هذان الإمامان»^(٢١)، أبو الأسود الدؤلي والخليل ابن أحمد الفراهيدي.

ويبدو من الأخبار التي وصلتنا أنه قد اتضح التمهّد في النحو من خلال وضوح «المنهج الكوفي» في التركيز على السماع والتعليل والقياس، ولا سيما بعد ظهور «عيسى بن عمر» مولى خالد ابن الوليد نزيل بني ثقيف (ت: ١٤٩هـ) وأبي عمرو «زبان بن العلاء» التميمي (ت: ١٥٤هـ)، اللذين كانت لهما قراءات مشهورة لبعض الآيات القرآنية من مما يحتجّ به باحثون.

وكان هذا هو الشغل الشاغل لنحاة تلك الأيام بالدرجة الأولى، بعيداً عن كثير من الوظائف الإنسانية المجتمعية الأخرى للغة. فقد روى السيرافي عن «علي بن محمد» أنه قال: «قال أبي: قلت له (لعيسى بن عمر) يوماً: أخبرني عن هذا الذي وضعت، يدخل فيه كلام العرب كله؟ قال: لا. قلت: فمن تكلم بخلافك واحتذى ما كانت تتكلم به العرب أترأه مخطئاً؟ قال: لا. قلت: فما ينفع كتابك؟»^(٢٢).

كما جاء عند الزبيدي أن ابن نوفل قال:

«سمعتُ أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عمّا وضعت ممّا سميتّه عربيّة، أيدخل فيه كلام العرب كلّهُ؟ فقال: لا. فقلت: كيف تصنع في ما خالفك فيه العرب وهم حجّة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسَمّي ما خالفني لغات»^(٢٣).

ويُعدّ من نحوي تلك الفترة أبو سفيان بن العلاء (ت: ١٦٥هـ) -أخو أبي عمرو المذكور قبل- الذي كان من أصحاب الغريب والرواة. ومنهم الأخفش الأكبر أبو الخطاب عبد الحميد ابن عبد المجيد (ت: ١٧٧هـ) الذي أخذ عنه يونس ابن حبيب وسيبويه وغيرهما، وقيل إنه أول من فسّر الشعر تحت كل بيت بعد أن كانوا يفسّرون القصيدة كلها بعد الفراغ منها، وله الفاظ انفرد بنقلها من لغة العرب لم ترو عن أحد غيره.

وتقدم النحو إلى الأمام وازدادت مطالبه وأبواب الاحتجاج فيه، بعد أن نقلت كتب «المنطق الصوري» من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، وعرف النحاة قواعد «القياس» وغير قليل من المحاكمات الصورية ذات الضوابط القائمة على «التعريف» وما يمكن أن تؤدي إليه من «نتائج» هي بمثابة تسويغات أوليّة بعيدة عن الواقع أو «مسلمات» تضمن عدم «التناقض» الشكلي^(٢٤).

وتجسّد هذا الاتجاه بصورة أكثر عمقا على يدي الخليل بن أحمد الفراهيدي من عرب الأزد (ت: ١٧٠هـ) ويونس بن حبيب مولى بني ضبة (ت: ١٨٢هـ) حسب ما نراه في أخبار المناقشات والمساجلات بين أعلام النحويين، وخاصة التي تظهر أن هذين الرجلين قد سارا مع متطلبات

الموجة المتصاعدة من جهود «التعليل» و«القياس» الطاغية في تلك الفترة من الحياة الثقافية على غير صعيد. وقد نقل سيبويه جوانب من ذلك عن أستاذه هذين، في طوايا «الكتاب» الذي وضعه في أغراض اللغة.

ونسبت أخبار كثيرة متناثرة في الكتب التي ظهرت في القرن الثالث الهجري وما بعده إلى أشخاص بأسماء أو من دون تحديد، أنهم تحدثوا عن ما شاع مع الخليل ويونس من مقارنات كثيرة في مرويات العرب، وأنهما «تمحلا للكلام» أحيانا ما لم يخطر على بال المتكلم الفصيح قط، وذهبا في التأويل والتفسير مذهب شتى لتسويغ المرويات، فقدرا في الكلام أفعالا مضمرة وحروفا محذوفة وعطفا على معطوف مفترض، وغير هذه من أمور عرفت في ما بعد باسم «العوامل» أو «المعمولات» التي قيل بضرورة الخضوع لها في الكتابة والكلام.

وارتبط بفرض وجود العوامل ما أطلق عليه فيما بعد اسم «علل النحو» التي سُمي «الزجاجي» بعضها «العلل التعليمية» بعد أن وصفها بقوله: «علل النحو... على ثلاثة أضرب: علل تعليمية، وعلل قياسية، وعلل جدلية نظرية. فأما التعليمية فهي التي يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب، لأننا لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها منها لفظا، وإنما سمعنا بعضا فقسنا عليه نظيره. مثال ذلك أنا لما سمعنا: قام زيد فهو قائم، وركب فهو راكب؛ عرفنا اسم الفاعل فقلنا: ذهب فهو ذاهب وأكل فهو آكل وما أشبه ذلك. فهذا كثير جدا، وفي

الإيماء إليه كفاية لمن نظر في هذا العلم. فمن هذا النوع من العلل قولنا: إن زيدا قائم، إن قيل: بم نصبتم زيدا؟ قلنا: بأن، لأنها تنصب الاسم وترفع الخبر، لأننا كذلك علمناه ونعلمه. وكذلك: قام زيد، إن قيل: لم رفعتم زيدا؟ قلنا: لأنه فاعل اشتغل فعله به فرفعه. فهذا وما أشبهه من نوع التعليم، وبه ضبط كلام العرب»^(٢٥).

ولا يحتاج الباحث المختص إلى كثير تفكير لكي يدرك أن البناء «التصوري» الواضح في هذا التسويغ وغيره لتفكير النحاة التقليديين وأتباعهم قد بقي كما هو، على مر السنين بل القرون. وما زاد - في الواقع - هو افتراضهم وجود الأمور والأسباب، بما أدى إلى تراكم الأبنية النظرية الصورية التي زعموا أنها سبب الوقائع اللغوية، تحت شعارات وذرائع لا تدخل - جميعا - في إطار البحث اللغوي التخصصي.

وكانوا بهذا يعملون على قلب ترتيب وجود اللغة نفسه؛ وهو أمر دفع «ابن مضاء» القرطبي أحمد بن عبد الرحمن (ت: ٥٩٢هـ) الذي كان أحد المشهورين في الاشتغال باللغة العربية في الأندلس لوضع كتابه «الرد على النحاة» الذي هاجم فيه جهود المشتغلين باللغة في المشرق العربي، وطالب بضرورة «إلغاء التعليل» في النحو، والخذ بالظواهر اللفظية دون غيرها.

وتبته «عبد الرحمن بن خلدون» لجانب مهم من هذه الظاهرة، ذات الصلة المباشرة بما نسميه «سوسيولوجية اللغة» فقال: «لا تلتفتن إلى خرفشة النحاة، أهل صناعة الإعراب، القاصرة

مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون أنَّ البلاغة لهذا العهد قد ذهبت، وأنَّ اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه.. وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تنزل موضوعاتها الأولى. والتعبير عن المقاصد، والتعاون فيه، بتفاوت الإبانة، موجود في كلامهم لهذا العهد.. ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم.. ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد، واستقرينا أحكامه، نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالاتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مُضِر^(٢٦).

فالأصل الصميمي -الذي أدركه ابن مضاء وابن خلدون وكثير من الذين سبقوهما بمئات السنين في حضارات أخرى، وتؤكد الدراسات الحديثة التي تؤيدها- هو أنَّ اللغة وجدت بما هي ظواهر متداولة في نقل الفكر أولاً، ثم أطلقت التسميات على أجزاء الكلام وأدواته لاحقاً،

كعمل يرمي إلى تنظيم وضع اللغة وتعليمها. وهذا من ما يظهر أنَّ كثيراً من التسميات والتصنيفات التي أطلقها النحاة، فائقوا بها اللغة وجمدوها داخل تعريفات وأشكال مقيّدة، ليست مسائل حاسمة فرضتها طبيعة اللغة أو اقتضاها تعلمها. ونرى أنه أحد الحواجز التي يجب أن تدعو الباحثين المعاصرين إلى التخلص من أثواب بالية جعل بعضها أردية للغة العرب، وأحاطتها بمزاعم أدت لتجميدها وشل قدرتها على القيام باستخدامها بمثابة «أداة» متاحة للعرب والمستعربين في التعبير الشفوي والكتابة ضمن أفضل الشروط العملية.

فهذا واحد من الإجراءات التي تفسح في المجال لجعل اللغة أكثر طواعية في التعلم والتمكّن من الاستعمال، وأكثر ارتباطاً بالفاعلية الفكرية والأوضاع النفسية لدى مستخدميها، وبالتالي تحقق قدراً أكبر من ما دعاه الأجداد باسم «السليقة اللغوية» التي كانت تشير -في ما تشير- إلى مجرى اللغة التلقائي مع التنفس، بما هي نظام لتقطيع الأصوات.

الهوامش والإحالات

٢-١ انظر عرض الرأيين بالتفصيل في بحثي:

The Old Arabic Language and Literature, pp.17.

٢-٣ سلسلة كتاب الهلال، السنة ٢٦، أكتوبر ١٩١٧م، (ص٧ وما بعدها)، نص منقول عن «جواد علي» في كتاب: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة.

٤- انظر بحثي المشار إليه، ص٣١.

٥- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج١، ص٤٢. وانظر للمقاربة بحث والتر أونج:

The Presence of the World.

- ٦- ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص ٨٦.
- ٧- المصدر نفسه، ص ٨٧ وما بعدها.
- ٨- ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ص ١٠.
- ٩- سبب قولنا باحتمال أن تكون هذه الإفادة غير صحيحة يتصل أولاً بأن سندها ضعيف حسب تقويم أهل الرواية، وثانياً ما يظهر في محتواها من تبسيط واضح لتسلسل حوادث التاريخ ومسألة الاستقرار في الأمصار. انظر في «معايير تقويم الحديث» كتابي: الأحاديث النبوية والصحابية، ص ٨٤ وما بعدها.
- ١٠- طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ص ١٤. وانظر: ابن النديم، الفهرست ص ١٠٨.
- ١١- الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٢٢١. ابن النديم: الفهرست، ص ٤٨.
- ١٢- الفهرست، ص ٨٠. وخلف بن حيان هو: أبو محرز، المعروف بالأحمر. انظر: الأعلام للزركلي، ج ٢، ص ٣١٠.
- ١٣- المصدر نفسه: ص ١٠٨، ١٤١. ابن سلام: طبقات الشعراء.
- ١٤- انظر تفصيلات وأمثلة مقارنة في كتابي: إصلاح الكتابة العربية، ص ٧٣ وما بعدها.
- ١٥- أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٢٨٥.
- ١٦- سعيد الأفغاني: في أصول النحو، حاشية ص ١٦٤.
- ١٧- انظر: مراتب النحويين لأبي الطيب، ص ٦ وما بعدها.
- ١٨- انظر: طبقات النحويين والبصريين للسيرافي، ص ١٥ وما بعدها.
- ١٩- انظر: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص ٢١ وما بعدها. إنباه الرواة إلى أنباه النحاة للقفطي، ص ٥ وما بعدها.
- ٢٠- انظر أمثلة لدى «اليمني» في: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين.
- ٢١- الصاحبى في فقه اللغة لابن فارس، ص ٣٨.
- ٢٢- أخبار النحويين البصريين للسيرافي، ص ٣٣.
- ٢٣- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص ٣٩.
- ٢٤- انظر حول قواعد المنطق وعمل المفكرين العرب والمسلمين فيه كتاب عبد الرحمن بدوي: المنطق السوري والرياضي، ص ١٨ وما بعدها.
- ٢٥- الإيضاح في علل النحو للزجاجي، ص ٦٤.
- ٢٦- مقدمة ابن خلدون، ص ٥٥٦ وتاليتها.

مصادر البحث ومراجعته

- ١- ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. المكتبة التجارية الكبرى، طبعة القاهرة. وكذا في الجزء الأول من كتابه «العبر في ديوان المبتدأ والخبر...» المطبوع بعنوان: تاريخ ابن خلدون، دار البيان، بيروت.
- ٢- ابن سلام، محمد: طبقات فحول الشعراء. دار المعارف بمصر.
- ٣- ابن فارس، أحمد: الصاحبى في فقه اللغة. مؤسسة بدران، بيروت ١٩٦٣م.
- ٤- ابن النديم، محمد: الفهرست. طبعة مكتبة الخياط، بيروت.

- ٥- أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي: مراتب النحويين. حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٤م.
- ٦- الأفغاني، سعيد: في أصول النحو. مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤م.
- ٧- أمين، أحمد: ضحى الإسلام. دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩م.
- ٨- بدوي، عبد الرحمن: المنطق الصوري والرياضي. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.
- ٩- بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي. نقله إلى العربية عبد الحليم النجار وزملاؤه، دار المعارف بمصر.
- ١٠- بلاشير، ريجيس: تاريخ الأدب العربي. ترجمه إبراهيم الكيلاني، دمشق ١٩٥٦م.
- ١١- الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين. حققه عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ١٢- الزبيدي، محمد: طبقات النحويين واللغويين. حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.
- ١٣- الزجاجي، عبد الرحمن: الإيضاح في علل النحو. دار النفائس، بيروت ١٩٧٣م.
- ١٤- القفطي، علي: إنباه الرواة إلى أنباه النحاة. حققه أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠م.
- ١٥- الزركلي، خير الدين: الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت.
- ١٦- السيرايفي، حسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين. نشرة فربنس كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦م.
- ١٧- شرف، محمد ياسر: الأحاديث النبوية والصحابية. مركز الكتاب العربي، لندن ٢٠٠٤م.
- ١٨- شرف، محمد ياسر: إصلاح الكتابة العربية. دار المتنبّي للطباعة والنشر، أبوظبي ٢٠٠٣م.
- ١٩- كتاب الهلال: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة. السنة السادسة والعشرون، أكتوبر ١٩١٧م.
- ٢٠- اليماني، عبد الباقي: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين. حققه عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٩٨٦م.

21- Ong, Walter: The Presence of the World. New Haven and London, Yale University Press, 1967.

22- Sharaf, M. Yasser: Old Arabic Language and Literature. Universal Academy Press Centre, London, 1989.

